

فلسطين:

أبجدية مقدسة .. أبجدية للحرية

محمد علي شمس الدين \*

بين ركعات الدم التي يركعها الثوار في الانتفاضة الفلسطينية اليوم، وركعات الدم التي سبق أن ركعها المقاومون اللبنانيون في الجنوب، نَسَبَ وجامع، إذ البلادُ هنا وهناك جامع، وعشائُها العُباد لها هكذا يعمدونها بالدم، ولا سبيل إلا للوصول مهما طالت الطريق واستفحلت مخاطره واستكلبوا علينا، نَعَم أراها حرّة ناهضة، جميلة فنتية من حرف «الفاء» إلى حرف «النون» في أبجديتها القديمة «فلسطين». وأي حرف منها لن ينقص، أو يسقط من جسدها شلو من الأشلاء، فاسمها المرصع بالدم، والزيتون، وقد طاف حولها الأنبياء والأولياء وفقراء الأرض، والشعراء والعشاق المُتَمِيمون بالحرية والحياة، ومات فيها الأطفال حجراً حجراً ليعيشوا في عمران الله وفي الهندسة الريانية للوطن، اسمها حرزها وتميمتها من أوّل الخليفة العتيقة إلى أبد الأبدان .. فلسطين .

أراها، نعم، بالرؤية والرؤيا حرّة محررة، ولم أرها إلا هكذا حتى وهي ترسف في الأغلال، وتتنفّس الموت في كل شهقة من شهقات الحياة ويحتشد فوق صدرها النبيل والجميل طغاة القرون وأقاوق المعمورة، وسخّ البشرية، المسوخ الذين انحدروا من عقدهم القديمة وعزلاتهم وأحقادهم التي بها أمرتهم آلتهم ومن تعطشهم الخرافي للدم وللانتقام ممن؟ من الإنسان، سالوا من سبعة أقطار المعمورة وصبوا في فلسطين، حملتهم إليها المراكب والطائرات وأرجلهم وأساطيرهم، يحدوهم حاخامتهم على وقع

تلاوات آيات شيطانية من التلمود ومن استطراد الصليبيين في تاريخ لا يعيد نفسه بل يعيد أوهامه وأساطيره ...

ويعيد القتل القتل سيرة المجزرة، سيرة المحرقة المستعادة والمستعارة هنا على أرض فلسطين، «قانا» جزءً منك يا حبيبتي ويا بلادي، و«دير ياسين» واللّد والرملة، ومكّة، أيضاً، والقرى المنثورة في الجنوب وبغداد وغرناطة والأندلس والنائمون في قبورهم في انتظار أن يقوموا، وأولئك الذين سميتهم أنت الشهداء، مثلما سمّوك أمّهم وجدّهم وطفلهم الوليد، لا تحزني طويلاً، لم يعد للدموع دورٌ، أو مكان، لم تعد الثكالي ثكالي، الثكالي السوداوات أنجن أطفال البياض مثلما يخرج النهار من جبّة الليل، والحياة من جلد الموت، ومثلما ستخرج فلسطين من إسرائيل، انظروا إلى صورتَي الاسمين شتّانَ بينهما، يخرج الوجه الأول من قناعه، والاسم من لصوص التاريخ وقتلة الشعوب وسارقي الأناشيد وخاربي الهيكل والدائسين على ميزان العدل بأحذية من عسكر .

نحن نعرف كم الجبناء جبنا . نحن الجنوبيين نعرف أنهم يعرفون أصلهم جيداً ومصدرهم، وأنهم متأهبون للعودة إلى حيث كانوا . لسنا أمّهم ولا أباهم ولا نسميهم أخوتنا، ولسنا اللاجئيين في بلادنا ولا المجمّعين في بلادهم، إنهم هم اللاجئون والتائهون والغاضبون الأرض ويدركون ذلك، فهم، وقد بلوناهم على الجنوب، خائرون خائفون .

ودائماً على أهبة الرحيل .. كانت تكفي الصرخة ليموتوا بالصوت مثل أن يموتوا بالطلقة أو بالجسد المलगوم . هم أولاد الشعب الميت ونحن أبناء الشعب الحي . ولمّ لا؟ خبرناهم وهم في دباباتهم قابعون، خائفون، فإذا جاءتهم الصيحة ذابوا في داخلها كالمح في قوقعة فاجأها الماء، لقد تركوا سريعاً كل القلاع والدشم التي بنوها لتحميهم في أرض ليست أرضهم، تركوا الخوذ والنعال والبنادق وهربوا خُفاً حاسرين وأيديهم إلى أعلى وهم يولولون وأمهااتهم تناديهم وتزغرد لهم: تزغرد للجبناء .

نحن كسرنا قرن الثور في الجنوب وسنكسره في فلسطين، وأوتقنا عجل بني إسرائيل إلى حجر الوادي . غادروا حين أتتهم صيحة المقاومين قبل أن تأتيهم نارهم، تركوا إضباراتهم وسجلاتهم وأسلاكهم الشائكة وألغامهم، وهربوا، هاموا على وجوههم، في الحقول، ارتطموا بألغامهم . هربوا هرولة أضحكنا طويلاً نحن الذين لم نعرف الضحك من عهد محمد . تركوا طعامهم ساخناً، تركوا ثيابهم الداخلية، أصدقاءهم المغفلين المضللين وهربوا، تركوهم عارين من الخبز ليرتطموا ببعضهم وتعمّ الفوضى فيحموهم . كلاً.. سبقوهم في الفرار .

وكان سجن الخيام كصدر هائل على جسد الجنوب يتجمع في داخله الوجع ويحتشد العذاب في الحجرات ويحشرج، حتى انفجر صرخة هائلة بالحرية كأنما نُفخ في الصور فنهض النيام المكبلون

وقاموا إلى قضبان الحديد فكسروها، والبوابات فخلعوها بلحمهم الحافي بأسنانهم خدشوا وجه الجدران بأظافرهم، وكانت الأيدي تمتد إليهم من خارج القضبان كأنما تم حينذاك زواج الحرية بالسجن، والفضاء بالزنزانة فكان من هذا القران التاريخي لنا تاريخ آخر.. سوف يؤرخ بتلك الأيام المعدودة من شهر أيار 2000. فكل يوم منها بألف سنة مما يعدون .

يصطدمون بأنفسهم عند الخوف. الدبابة تصدم أختها، الطائرة ترتطم بالطائرة، الجندي برئيسه، ويطلقون النار على أنفسهم من شدة الخوف. يطلقون النار على الضلال، والطائرات تصب نيرانها على الجبل.. الريحان، الجبل قائم وشاهق والمقاومون فيه أشجار تتحرك لبسوا الأشجار، أو كمائن في المغاور، وألغام على الطرقات، ومفاجآت تتوالى. كانوا لا يعرفون من أين يطلع لهم المقاوم، من حفرة، من صخرة، من شجرة... لا يعرفون كل شيء كان هناك ملغوماً. لذا كان يطلع لهم المقاومون من جلودهم، فيموتون بأدنى الطلقات .

هكذا أرى فلسطين غداً حرّة - الآن حرّة - كما رأيت الجنوب - نظيفة. ستغسل من زوايا الشوارع والعيون آثار الدم. أراها كما أرى جسدي وروحي. كما أرى الجنوب، المشهد لا التباس فيه. فالحرب تقلبت في منازلها وأخطائها وصوابها تقلباتها العديدة حتى رست أخيراً في مكانها الصحيح وأرضها التي لا تمويه فيها ولا التباس، وناسها الحقيقيين أهلها، وصوتها وتسمياتها الصحيحة: الحرب اليوم هي فلسطين .

ويوم مرّ الفلسطينيون في حربهم في لبنان، وكانوا مرّوا قبل ذلك في تونس وعمان ومطارات لندن وزيورخ وستادات وملعب الكرة في العالم والطائرات والمطارات والساحات... إنما كانوا يعبرون نحو ساحة الحرب الحقيقية واسمها الصحيح: فلسطين. صحيح أن فلسطين أبعد من اسمها وأرضها أوسع من أرضها، وسماها، من سماها وأهلها من أهلها، إلا أن لها تهجئة أولى لا يمكن لها أن تستبدل بها أية تهجئة أخرى، وهي فلسطين.

إنني أرى الأشياء اليوم بأعين. أرى التاريخ متجسداً وعلى مرمى حجر من نظري، أرى المشهد واضحاً ولا التباس فيه: فعلى الأرض الأصيلة تدور اليوم المعركة. لقد وصل الفلسطينيون من أقطار العالم والمنافي إلى أرضهم حرباً حراً. وصلوا ونصبوا أجسادهم في غزة وأريحا والضفة ورام الله، وصوبوها نحو القدس وحيفاً ويافا والجليل وكل رقعة من البلاد المغدورة. وأرى بأعين ما يجري اليوم. ليس ثمة من أوهام أو تحرّصات، ولا لوم ولا تنزيه على الآخرين، لا العرب ولا الفرنجة، لا الأمم المتحدة ولا العالم ولا أحد. العالم أمر مضحك والأمم المتحدة ملتحدة. الآخرون مَرَض. قلت إن الناس على أرضهم متجمعون مهددون، حسناً، مقتولون يومياً لا يهتم، مقصوفون بالطيران والقنابل والرصاص، لا يهتم،

ممزقون بالعتاة والطغاة والجنود والخونة، لا يهّم، مجدورة أرضهم بالحواجز والمستعمرات لا يهّم... المهّم أن الشعب الفلسطيني اليوم موجود على أرضه، وأمامه الإسرائيليون هكذا وجهاً لوجه دمماً لدم حقاً أمام باطل. المعركة، إذًا، تدور في مكانها الصحيح وزمانها الصحيح وأهلها الحقيقيين.. إنّ فلسطين ستكون حرة على مرمى خمسين عاماً لا أكثر.. بل فلسطين حرة الآن. لا القدس وحدها أو نصفها أو ما حواليتها ولا أريحا أولاً وآخرأ ولا الضفة والقطاع بل كل فلسطين، كل حروف أبجديتها المقدسة .

---

\* شاعر لبناني يقيم في بيروت.